مجلة أنثروبولوجيا
مجلد: 07 عدد: 01 السنة: 2021
ISSN: 2437-041X
E-ISSN:2588-2325

المقدّس في فلسفة ديفيد هيوم

The sacred in the philosophy of David Hume

بركاني رابح*، جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة، الجزائر، ra.berkani@univ-alger.dz

بركاني محمد امين، جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة، الجزائر، mo.berkani@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2020/07/18 تاريخ القبول: 2020/09/28 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

يعتمد هذا البحث على تصور أحد رواد الفلسفة الحديثة، وأحد المصنفين في قائمة التنويريين، وهو الفيلسوف الاسكتلندي التجريبي ديفيد هيوم (David Hume) والذي يعد من زعماء النزعة الشكية كما يصنف ضمن قائمة الفلاسفة الملحدين، وقد وضع مبدأين لعمل الذهن الأول هو أسبقية الانطباعات على الأفكار، والثاني تفكيكه لفكرة الاقتران الضروري بين السبب والأثر والتي ارتبط اسمه بها في عالم الأفكار، أما في تاريخ الأديان فهو الذي ادخل المنهج التجريبي على هذا العلم، كما له نقد للمعجزة وهو من المشككين بها، ويعتبر هيوم من الفلاسفة التجريبيين الملحدين، ويرى أن الإنسان هو المركز والأحق بالقداسة، وان الفلسفة الربيبة (الشكية) الأكاديمية هي مستقبل الفلسفة. والمقال يسعى للبحث عن مكانة المقدس الذي هو محور الدين في مشروعه حول التاريخ الطبيعي للدين، وأهمية الموضوع تكمن في الربط بين مصطلح المقدس الذي ينتمي إلى معجم الأديان في بعده الطقوسي خصوصا و بين مصطلح المقدس عند الفيلسوف ديفيد هيوم أحد أشهر الفلاسفة المشككين والملحدين.

الكلمات المفتاحية: ديفيد هيوم، المقدّس، الفلسفة التجريبية.

Abstract:

This research is based on the perception of one of the pioneers of modern philosophy, and one of the authors on the list of Enlightenment, which is the experimental Scottish philosopher David

* المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات

Hume, who is one of the leaders of skeptical tendency as it is classified in the list of atheist philosophers, and has developed two principles for mind's work : the first one is about the primacy of impressions over ideas And the second is its dismantling of the idea of the necessary association between the cause and the result, whose name has been associated with it in the world of ideas, but in the history of religions it is he who introduced the experimental method to this science, as he has a critique of the miracle and he is one of those who doubt it, and Hume is considered an experimental atheist philosopher, and he sees that man is The center and the most worthy of holiness, and that the academic (skeptical) philosophy is the future of philosophy.

The article seeks to search for the status of the sacred, which is the focus of religion in his project on the natural history of religion, and the importance of the subject lies in linking the term sacred, which belongs to the dictionary of religions in its ritual dimension in particular, and the term sacred to the philosopher David Hume, one of the most famous skeptical philosophers and atheists.

Keywords: David Hume, the sacred, Experimental philosophy.

مقدمة:

شكلت فلسفة ديفيد هيوم في مشروعه الخاص بالطبيعة البشرية، حجر أساس في الفلسفة التجريبية الانجليزية، حيث حاول اختبار مختلف الفروض الميتافيزيقية وفق المنهج التجريبي، وإعطاء تفسير وضعي لأصل الأفكار، لإنشاء نظرية للمعرفة البشرية، نستطيع من خلالها تتبع أصل أفكارنا ودراستها دراسة جدية، ومنها فكرة المقدس التي نحاول تتبع نشأتها من خلال فلسفة ديفيد هيوم.

إن المقدس في كل الأديان كان وما يزال القلب النابض له، حيث يقول هنري هوبير (**Henri *Hubert***) " الدين هو تدبير المقدس" (كايوا، 2010، صفحة 36)، وقد رجحت بعض الدراسات أصل المقدس إلى الخوف، وهو ما يتعارض مع مبادئ المقدس من رمز للسلام، كما نسبه البعض للعجز الإنساني، والمقدس ليس خاصة ثابتة في الأشياء بل هبة سرية تعطى لدنيوي فتلبسه ثوب الشغف

المنارة للاستشارات

والرهبة، ولا يوجد ما لا يمكن إلباسه صفة المقدس كما ليس هناك ما يستحيل تجريده منها (كايوا، 2010، صفحة 9)، وبذلك فالمقدس هو كل ما أسبغ عليه صفة القداسة، وهي تلك الصفة التي تعطى للأشياء انطلاقا من العلاقة الروحية التي نربطها معها.

فمن خلال النظريات التي أسس لها هيوم في كتبه والتي حاول من خلالها تفسير التاريخ الطبيعي للدين، نسعى إلى استقصاء البحث عن الأبعاد التي يعطها للمصطلح والمفهوم المركزي للمقدس وكيف طبق عليها رؤيته العقلانية البعيدة عن دائرة الأدبيات الدينية.

من أجل ما سبق اتبعنا خطوات منهجية تؤمن الوصول إلى معالم بناء المصطلح وتوظيفه في كتابات ديفيد هيوم.

ملخص الإشكالية: كيف نفكر في المقدس من منظور فلسفي وعقلاني؟

وقد تطرقنا إلى محاور تخدم الإشكالية أهمها:

- مفهوم المقدس لغة واصطلاحا ثم تطرقنا الى مفهومه عند ديفيد هيوم
- نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم.
- استثمار مبادئ منهج وفلسفة ديفيد هيوم حول المعرفة لتتبع نشوء المقدس.

1 مفهوم المقدّس:

1.1 لغة:

جاء في مختار الصحاح (الرازي، 1986، صفحة 341) :

الْقُدْسُ: بِسُكُونِ الدَّالِ وَضَمِّهَا الطُّهْرُ اسْمٌ وَمَصْدَرٌ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنَّةِ: حَظِيرَةُ الْقُدْسِ.

وَ (التَّقْدِيسُ) التَّطْهِيرُ. و (تَقَدَّسَ) تَطَهَّرَ. وَالْأَرْضُ (الْمُقَدَّسَةُ) الْمُطَهَّرَةُ.

وَبَيْتُ (الْمَقْدِسِ) يُشَدَّدُ وَيُخَفَّفُ وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ (مَقْدِسِيٌّ) بِوَزْنِ مَجْلِسِيٍّ وَ (مُقَدَّسِيٌّ) بِوَزْنِ مُحَمَّدِيٍّ.

وَ (قُدُّوسٌ) بِالضَّمِّ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ فُعُّولٌ مِنَ (الْقُدْسِ) وَهُوَ الطَّهَارَةُ.

وذكر في معجم البلدان (ياقوت، 1990، الصفحات 110-111) :

المَقْدِسُ: في اللغة المنزه، قال المفسرون في قوله تعالى: "...وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..." (سورة البقرة/30) ، قال الزّجاج: معنى نقدس لك أي نطهّر أنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدسه أي نطهّره.

قال: ومن هذا بيت المقدس، كذا ضبطه بفتح أوله، وسكون ثانيه، وتخفيف الدال وكسرها، أي البيت المقدّس المطهّر الذي يتطهر به من الذنوب، قال مروان:

المنارة للاستشارات

"قل للفرزدق، والسفاهة كاسمها: *** إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس
ودع المدينة إنها محذورة، *** والحق بمكة أو بيت المقدس"

وقال قتادة: المراد بأرض المقدس أي المبارك، وإليه ذهب ابن الأعرابي، ومنه قيل للراهب مقدّس، ومنه قول امرئ القيس:

"فأدركنه يأخذن بالساق والنّسا *** كما شبرق الولدان ثوب المقدّس".

1.2 اصطلاحا:

اجتهد العلماء في محاولة إعطاء تعريف شامل لهذا المصطلح المحوري، الذي احتل هذه المكانة في معجم مصطلحات الأديان بمختلف اتجاهاتها، وفي محاولة منا لوضع تعريف إجرائي موافق لفرضية الموضوع نتطرق إلى بعض التعريفات التي خصت المقدس، بالرغم أنه لم تتفق الدراسات العلمية حول تعريف جامع للمقدس، فمنهم من أخذه بمفهومه ومنهم من أرجعه لأصله (المقدس والعنف الصهيوني في رواية الصراع العربي- الإسرائيلي، 2000، صفحة 85)، حيث يرجع البعض أصل المقدس إلى العنف، وهو ما يتناقض مع مبادئ المقدس والتي تركز على أن المقدس هو رمز للسلام الروحي، أما التصور الماركسي الذي يحصر المقدس والأنظمة الدينية عامة في العجز الإنساني عن مواجهة الكوارث الطبيعية، مجابهة فعلية، وكذا العجز عن تفسير الظواهر تفسيرا موضوعيا (المقدس والعنف الصهيوني في رواية الصراع العربي- الإسرائيلي، 2000، صفحة 85)، وهذا التصور يصب في أصل المقدس وأهميته، حيث يلجأ إليه الإنسان في تفسير كل ما يتعلق بالغيبيات، وما يكون خارج قدرته، ويشير كايوا إلى نفس التفسير فيرى أنه الإناء الذي يخيل للإنسان انه وعاء لتلك القوة التي يتعين على الإنسان التعامل معها (كايوا، 2010، صفحة 39)، وبذلك يبدو المقدس إحدى مقولات الإحساس، والتي يترتب عليها السلوك الديني (كايوا، 2010، صفحة 36)، وهو ما يؤكد عليه الفيلسوف التجريبي هيوم في كثير من مواقفه حول كل ما هو ميتافيزيقي، ويرجع أصله إلى الحس "فكل شيء وجوده إنما إدراك حسي فقط" (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 194)، وبذلك فإن هيوم يرى في الحس أصلا لكل شيء في الذهن، فكل ما لا تدعمه التجربة عند هيوم وجوده حسي فقط.

أما مرسيا إلياد فيرى أن الشيء المقدس يمكن تفسيره كأساس أول لتحديد مفهوم الملكية الخاصة وإضفاء صفة القداسة عليها (إلياد، 1988، صفحة 7) فكل ما يكون مملوكا لجماعة أو لفرد يكون مقدسا بحكم امتلاكهم له، فقداسة الشيء إذن من قيمته للفرد والجماعة، وهو ما يراه كايوا فيقول أن القدسية هي هبة سرية تعطى للأشياء فتلبسها ثوب القداسة (كايوا، 2010، صفحة 9)، فالقدسية ليست صفة أصلية في الأشياء وإنما تجربة وجدانية، تحيل إلى نوعية العلاقة التي نقيمها مع شيء ما، أكثر مما

المنارة للاستشارات

تحيل إلى الشيء ذاته (المقدس والعنف الصهيوني في رواية الصراع العربي- الإسرائيلي، 2000، صفحة 87).

وكتعريف جامع مواقف لفرضيتنا نقول أن المقدس هو كل ما أسبغ عليه صفة القداسة، والقداسة هي صفة تعطى للأشياء بحكم العلاقة الروحية التي نربطها معها، اعتقادا بأنها إناء أو ملكية لتلك القوة التي يتعين على الإنسان التعامل معها.

2. مفهوم المقدّس عند ديفيد هيوم

1.2 مفهوم المقدّس من خلال كتاب تاريخ الدين الطبيعي لديفيد هيوم:

إن تقصي الأصول التاريخية لمفهوم المقدس، تفضي بنا إلى البحث عن تلك الحالة للأشياء قبل أن تلبس صفة القدسية، تلك الحالة التي يعبر عنها البعض بالدنيوي، والدنيوي ليس هو ما يقابل المقدس ولا هو ضد له، فغياب القدسية لا يغير من الحالة الأصلية للشيء بالنسبة للبنية التكوينية (إلياد، 1988، صفحة 14)، حيث تظهر فكرة التعارض تلك(بين المقدس والدنيوي) المقدس دائما كحقيقة من نظام أخر غير الحقائق الطبيعية، وتتشكل المصطلحات المستعارة للتعبير عن المقدس من الميدان الطبيعي أو الحياة الروحية الدنيوية للإنسان، فاللغة صنعت لكل ما يتجاوز التجربة الطبيعية للإنسان مصطلحات مستعارة من التجربة الإنسانية ذاتها، ثم تنسب تلك المصطلحات للمقدسات، كالصفات التي تنسب للإله، فالحكمة والرحمة هي صفات اكتسبتها اللغة انطلاقا من التجربة الإنسانية الروحية، وحين يعجز الإنسان عن التعبير عن ما يتجاوز قدراته ينسب إلى مقدساته نفس الصفات التي استوحاها من تجربته (إلياد، 1988، صفحة 16).

أما فيما يخص نظرة ديفيد هيوم لأصل المقدس فمن خلال كتبه يوحي بفكرة أن المقدسات هي صنع ديني، بحيث تكون دائما موصولة به، سواء كانت المقدسات صفات مثل الرحمة والحكمة وحتى الحقد والظلم التي يرى أن المتدينين من المثقفين أسبغوا عليها القداسة انطلاقا من إيمانهم الديني فنسبوا للإله من صفات باسم القداسة ما أنكروه على أنفسهم، فما ينسب للإله كله خير (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 110)، وإن كان أكثر ما يقصد بذلك الأديان الوثنية القديمة، ويرجع هيوم أصل الأفكار الدينية إلى الخوف من أحداث الحياة، فجعل الإنسان لنفسه آلهة وأخضع نفسه لها وجعل لكل إله خصوصيات وقدرات حسب أحداث الحياة (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 103)، فالجهل الإنساني بأحداث الحياة جعلهم يبحثون عن تلك القوة الخفية التي تقدر على إسعادهم وإبعاد التعاسة عنهم، عوض أن يبحثوا عن السبب العلمي خلف الحدث (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 26)،

المنارة للاستشارات

وبذلك أنشئوا المقدسات كإيمان منهم بتلك القوة، ويربط المتدينون موضوع البلوى بالمقدسات لجلب الناس إلى الإحساس المباشر بالدين والذي ينسونه زمن الرخاء (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 28)، وكل طائفة دينية هي إيجابية وبعيدة عن الصدام بقدر ما يكون إيمانها الخاص وعبادتها مقبولة بالكامل لله، فان تم إقصاء جزء منها من طائفة أخرى يحدث العداء، فتلقي كل واحدة منهما العداء والحقد المقدس على الأخرى (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 69)، ويرجع هيوم سبب التعلق بالمقدسات كذلك إلى الازدراء، فكلما كانت المقدسات اقل قيمة وشانا زاد ولاء التابعين لها نتيجة لردة فعل للازدراء الذي تلقوه من الناس الآخرين (هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، صفحة 89).

وكملخص لما سبق فان مفهوم المقدس عند هيوم من خلاله كتابه تاريخ الدين الطبيعي يتمثل في : أن أصل المقدسات هي الأفكار الدينية، ويظهر دور المقدسات في الدفاع عن تلك الأفكار، فكل ما يبدو أنه يقصيها تلقى عليه قداسة العداء، وكل ما يؤكد تلك الأفكار ويقويها يلبس ثوب القداسة (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 162)، كما تعتبر المقدسات محفزة للإحساس الديني وأثر للتذكير به، وهي التي تجعل صفات الإله كلها مقبولة وإن كانت خطيئة عند الإنسان، ويعتمد الدين على صفة القداسة حتى يسلم من النقد وخاصة الأديان التي تعتمد على الكتابة المقدسة والتقليد في مذهبها الديني (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 146) ويقصد بذلك الأديان السماوية التي تعتبر الكتاب المقدس الخاص بها مرجعا لكل أفعالها، ولكن نناقش علاقة المعجزة والمقدسة عند ديفيد هيوم لما لهما من تشابه من حيث الأصل والأهمية بالنسبة للدين والمتدين.

2.2 العلاقة بين المعجزة والقدّس:

المعجزة عند هيوم هي خرق لقانون من قوانين الطبيعة بإرادة إلهية خاصة أو بتوسط فاعل غير مرئي (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 159)، وقد دلّ هيوم على علاقة المقدس بالمعجزة في سياقات عديدة، وقد خصص جزءا من كتابه تحقيق في الذهن البشري لنقد المعجزة، واعتبر أنه وصل إلى وضع قواعد موضوعية لقبول المعجزة (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 151 فما بعد). كما اعتبر المعجزة أداة للمتدين حتى يعزز حجته لقضايا مقدسة، فيمكن للمتدين المتطرف أن يبالغ في تصور رؤية مالا حقيقة له، وقد يعرف أن ما يرويه كاذب ولكن يثابر عليه مع أفضل النوايا في العالم، بهدف تعزيز قضية بالغة القداسة (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 162)، وتنتقل عبر الأجيال عن طريق القصص والخرافات، حيث أن الطبيعة البشرية تنزع إلى الغريب والمدهش أكثر من نزوعها إلى الحقيقة والحجة المقرونة بالبينة والتجربة وبالتالي فان المعجزة في الغالب تكون منقولة إلى

المنارة للاستشارات

الشعوب المتحضرة عن طريق الأجداد محاطة بهالة من الهيبة و التقديس لهم (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 164).

وملخص القول أن كل من المعجزة والمقدس يعملان من أجل تثبيت أحدهما لأخر، فالمعجزة حامية للمقدس من أن تطاله ألسنة النقاد والمفكرين مخافة سخط الناس والآلهة عليهم إذا تعدو على المقدسات، والمقدس معزز لصدق المعجزة عند الناس، فمجرد أن تكون الرواية محاطة بهالة من التقديس تصبح صحيحة عند الناس. كما أن المعجزة تجعل المتدينين أكثر تصديقا بقدرة إلهية تحمي المقدسات وتهب لها هذه القدرات الخارقة للطبيعة البشرية.

ويعتبر هيوم أن السبب الرئيسي للإيمان بالأديان راجع إلى المعجزة في حدّ ذاتها، حيث يعتبر أن النبوة هي معجزة لأنها حجة لرسالة إلهية للبشر (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 178)، وبالتالي فان المعجزات هي من أدوات الدين التي من خلالها يهب لنفسه ولكل أدواته هالة التقديس.

3. نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم

1.3 مبادئ نظرية ديفيد هيوم:

حاول ديفيد هيوم بناء نظرية تعتمد على ما يمكن ملاحظته وتقوم على التجربة، ثم تحليل الملاحظات والبحث عن قوانينها، وقد خط هيوم منهجه متأثرا بالفيزيائي إسحاق نيوتن ومنهجه في الفيزياء (مبروك، 2010، صفحة 4)، وقد اعتمد على التحليل السيكولوجي النقدي ل "الأفكار المجردة" (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 12)، وذلك للكشف عن خفي الموارد والمبادئ التي تحرك الذهن الإنساني في عملياته (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 11)، وعليه ينطلق في تفسيره ليسمي الحالات الأولية لفظة "إدراكات" **(Perceptions)** وهي بذاتها تنقسم إلى "انطباعات" **(Impressions)** و"أفكار" **(Ideas)** (**Hume**، **Enquiry Concerning Human Understanding**، 2017، الصفحات 7-8)، حيث أن الانطباعات هي كل إحساساتنا وانفعالاتنا وعواطفنا كما يكون ظهورها أول مرة في النفس، وتكون الانطباعات عبارة عن انطباع الإحساس والتأمل، أما الأفكار فهي الصور الخافتة لهذه الانطباعات في التفكير والاستدلال (**Hume**، **A Treatise concerning Human Nature**، 2017، صفحة 1).

وقد حدد هيوم الفرق بين الانطباعات والأفكار، فالانطباعات اسبق وأقوى وهي مصدر للأفكار (**Hume**، **Enquiry Concerning Human Understanding**، 2017، الصفحات 8-9)، حيث أن أشد الأفكار حيوية تظل دون أبهت الإحساسات (**Hume**، **Enquiry Concerning Human**

المنارة للاستشارات

Understanding، 2017، صفحة 30)، ويعد هذا المبدأ- أي أسبقية الانطباعات على الأفكار- بمثابة معيار اختبار للأفكار الفلسفية (مبروك، 2010، صفحة 60) ، وهو المبدأ الأول لنظرية هيوم المعرفية.

أما عمل الذهن فيتم وفق مبادئ ثلاث وهي مبادئ تداعي الأفكار: التشابه، والتماس في الزمان والمكان، والسبب والأثر (**Hume**، **A Treatise concerning Human Nature**، 2017، صفحة 40). كما يشير هيوم إلى مبدأ العادة ومدى تأثيره على اختياراتنا، فالعادة هي الخبرة التي نمتلكها من التجارب السابقة وننقلها للحاضر، وهي التي تجعلنا نثق باختياراتنا ونلغي كل افتراض مضاد (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، الصفحات 84-89)، وبالتالي يتحقق التناسق بين تعاقب أفكارنا ومجرى الطبيعة فلا يكون تعارض بين الحدث والفكرة والفعل، وتساعدنا بذلك في فعل الخير أو اجتناب الشر، ويتم بها الملائمة بين الوسائل والغايات وحيثما وجدنا أثارا مختلفة لحدث واحد فان العادة هي التي تجعلنا نعطي الأفضلية لما وجدناه أكثر تكرارا في الماضي (**Hume**، **A Treatise concerning Human Nature**، 2017، الصفحات 82-83) ويتحقق الغرض من الفكرة لتترجم فعلا موافقا وملائما لها.

2.3 مبدأ السببية عند ديفيد هيوم:

وفي تفسيره لمبدأ السببية(العلية) وهي التي ارتبط اسمه بها في تاريخ الأفكار، فقد قام بتفكيك فكرة الاقتران الضروري، وذلك ما يشكل إسهامه الرئيسي في تقدم الفلسفة الإنجليزية (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 11)، فلا يرى هيوم أن الأسباب والآثار نستطيع الكشف عنها بالعقل وإنما بالتجربة وحدها (**Hume**، **A Treatise concerning Human Nature**، 2017، صفحة 78)، فلا تعرف أن النار تحرق بمجرد النظر إليها فقط (**Hume**، **Enquiry Concerning Human Understanding**، 2017، الصفحات 12-13)، بعدها يستخلص هيوم أن فكرة السببية هي مشتقة من علاقة ما بين الموضوعات (**Hume**، **A Treatise concerning Human Nature**، 2017، صفحة 82)، فبما انه لا يوجد انطباع أول استخلصنا منه فكرة السببية فإذا هي ليست علاقة ضرورية، ولذا فالضرورة هي ضرورة عقلية نتيجة للتعود، وبالتالي هي ضرورة تتعلق بالموضوع لا بالذات ما يجعلها صفة للإدراكات لا صفة للأجسام (مبروك، 2010، الصفحات 60-62)، فالسببية عند هيوم هي "موضوع يتبعه موضوع أخر، ويحمل ظهوره الفكر دوما إلى ذلك الأخر" (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 109)، وعليه فان التعود يخلق تلك الضرورة في الذهن ما يجعلنا نعتقد بفكرة الاقتران الضروري ولا يوجد دليل علها في الأجسام والأشياء، فليست في حقيقة الأمر قرينة بين السبب والأثر وإنما الضرورة عقلية فقط نتيجة لتأثير العادة عليه.

المنارة للاستشارات

وكملخص لما سبق فإن ديفيد هيوم يعتبر أن انطباع الإحساس والتأمل هما الأصل لكل الأفكار، وأن الأفكار ترتبط بينها وتتكون وفق المبادئ الثلاث - التشابه والتماس(التجاور) في الزمان والمكان والسبب والأثر- بعدها يكون الإنسان خبرته من التجربة التي هي حصيلة ملاحظاته وتجاربه السابقة، ليتمكن من خلالها مستقبلا من تحديد اختياراته وفق مبدأ "العادة"، فكل ما يجده الإنسان أكثر تكرارا في الماضي يعطي لموضوعه الأفضلية، ووفق ذلك يتم انتقال الأفكار من مجرد انطباعات إلى أفعال.

4. نشوء المقدّس من خلال مبادئ فلسفة ديفيد هيوم:

ترتبط الأفكار عند ديفيد هيوم فيما بينها كما ذكرنا سابقا وفق مبادئ ثلاث التشابه التماس في الزمان والمكان والسبب والأثر، وعليه نقوم من خلال مباحث متعددة بإسقاط هذه المبادئ على مجموعة من الأفكار، ونقوم بتتبع نشوء المقدس.

إن الملاحظ أن المقدس يكون على ضربين، مقدس أصلي ظهر بظهور الدين: كالكتب المقدسة وتقديس الأنبياء والأماكن المقدسة (المعابد، المساجد...) فهي مقدسات وضعها الدين فور إقامته ونشأته (وهذه تلاحظ خاصة في الديانات السماوية) أو التي عبر عنها هيوم أنها تعتمد على الكتابة المقدسة في مذهبها الديني (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 146)، ومقدّس فرعي: تنتجه الأفكار انطلاقا من المقدس الأصلي عبر مبادئ تداعي الأفكار، فالمقدس محور الإنسان حيث يستلهمه من الدين ويقوم بتفعيله (خالد، صفحة 71) وتنشأ المقدسات ابتداء من:

1.4 المعتقد:

يرى هيوم أن كل الأديان والمقدسات بل كل الأفكار تكسب قيمتها ووزنها من ذلك الشيء الذي نسميه اعتقادا، والاعتقاد هو "شيء ما، يشعر به الذهن الذي يميز بين أفكار الحكم وتوهمات المخيلة، وهو ما يعطي الأفكار وزنا وتأثيرا، ويجعلها تبدو ذات أهمية أعظم، ويقويها في الذهن ويقيمها كمبادئ موجهة لأفعالنا" (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، الصفحات 78-79)، ولذا فالاعتقاد هو شعور أكثر حدة وقوة وحيوية من الخيال، فاعتقادات الإنسان هي عينه التي يرى بها الواقع ويدرك بها الحقيقة ويقيس بها الأخلاق، وهي مقترنة بكل عمل يقوم به وبكل إحساس يشعر به وبكل قرار يتخذه وبكل صفة وخلق يتسم بها فلا يمكن الفصل بين المعتقد والفعل، فالمؤمن والكافر والملحد كل يستقي أفعاله من مفهومه لعقيدته، والعقائد تنشأ المقدسات الخاصة بها، وتأخذ المقدسات قيمتها من العقائد التي تنتمي إليها، فكل ما يخيل للإنسان انه وعاء للدين يكتسب في عينيه صفات الرهبة والقدسية، وكل ما يفتقر لها يبدو له مجردا من الأذية (كايوا، 2010، صفحة 39)، وتصبح بعد ذلك قاعدة لا يمكننا الخروج عنها، فوظيفة العقل هي الحكم بالخطأ والصواب وليس بالخير والشر (بوحناش، 2015، صفحة 11).

المنارة للاستشارات

وعليه نستنتج أن العقل البشري غير قادر على إدراك المبادئ والغايات، وان العقائد هي التي تحل محله فيما يعجز عن فهمه فتقوي الأفكار التي توجه أفعالنا لفعل الخير أو تجنب الشر.

وأما في خصوص ما يعطي تلك القيمة للمعتقد وبدوره للمقدسات، فان هيوم يرجعه إلى مبدأ "العادة" حيث أن تضافر عدد من اللمحات على حدث واحد يقوي ويولد ذلك الإحساس الذي نسميه اعتقادا (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، 2008، صفحة 90)، فالاعتقاد هو إحساس مدعوم بتكرار منتظم من اللمحات أعطت له الأولوية والأفضلية على إحساس أخر لا يسنده عدد مماثل من التجارب.

بعد تطرقنا لأفعال الذهن التي تخدم صفة القدسية وتقويها، نذكر أهم ما ينتج المقدس الفرعي في المجتمع.

2.4 القصة أو الكذبة:

إن القصة أو الكذبة التي لا يصدقها أحد في مكان نشأتها تصبح يقينية على مسافة ألف ميل (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 166)، حيث أن الجو في المجتمعات الإنسانية (العوام) ملائم لكل ما يثير الدهشة ويزين الخرافة (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 172)، فإذا وجدت الكذبة مكانا مناسبا لقبولها تتحول إلى معتقد، إلى انه معتقد ضعيف يزول بسهولة إذا ما قوبل بالحجة والدليل، لأنه غير مبني على أفكار قوية (**Hume**، **Enquiry Concerning Human Understanding**، 2017، صفحة 56)، فليس بالضرورة إذن أن تكون كل المقدسات أصلها من الدين، وإنما فكرة القدسية مستوحاة من الدين، بعدها يمكن لمبدأ التجاور أن ينشأ الأفكار الفرعية، فيؤثر في قوة الأفكار ويزيدها ويقذف في ذهننا تأثيرا يحاكي الانطباع المباشر (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 81)، ما يجعل من الكذبة معتقدا مقبولا مع قليل من الممارسة.

3.4 الآثار:

تعتبر قداسة الإنسان في مقدمة أي شكل أخر من أشكال القداسة مهما كانت درجتها باعتبار أن هذه الأشكال من القداسة قد تم اكتسابها في الغالب من الإنسان وبواسطته (خالد، صفحة 71)، وبذلك فإن الأماكن التي تخص رجالا مقدسين تأخذ قدسيتها منهم وتأثر على المؤمنين بها فيجعلهم يسعون وراء الرموز والصور لكي تنشط تقواهم (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 83)، فثيابهم وأماكنهم هي أثر من أثارهم كانوا يحيون فيها ويستعملونها في حياتهم، فالأثر هو دليل على السبب (المقدس) ومرافق له في الواقع، ومن أمثلة ذلك "ظاهرة الأولياء الصالحين" هذه الظاهرة التي يبرز فيها تجلي المقدس في أماكن وأشخاص وأشياء، حيث يجعل الإنسان لنفسه أماكن وأشياء يطبعها بطابع التقديس تجعله قريبا من المقدس، وتذكره به وتصبح رمز له حتى تمكّن المتعبّد من استشعار روح العبادة، إلى انه يشير أن هذه العملية من الممكن أن تؤدي إلى فقدان المقدس الأصلي واستبداله بما ينوب عنه، فيصبح هو

المنارة للاستشارات

المقدس الأصلي، فالمعتقدات في ذاتها تفلت منا بسهولة عندما تخضع للتفكير، وليس في مقدورنا أن نستدعي الشيء الأصلي كلما سنحت لنا الفرصة لتأملها، وبهذه الطريقة يداخل اللبس تدريجيا تعليلاتنا، فتحسب أشياء مشابهة بسهولة بمثابة الأشياء هي بعينها وتنحرف الخلاصة في النهاية كثيرا عن المقدمات (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 91).

فالمقدسات التي لا يمكننا استدعائها متى سنحت الفرصة يتم تغيرها تدريجيا إلى صور أو أماكن أو أشخاص اقرب وتحسب أنها هي نفسها بمرور الزمن وتغير الأجيال"ويمكننا أن نلاحظ أن الاعتقاد بالشيء القرين هو دائما مفترض وأن من دونه لا يمكن أن يكون للعلاقة أي أثر (هيوم، مبحث في لفاهمة البشرية، 2008، صفحة 84).

وكنتيجة فإن أصل فكرة المقدسات عند هيوم هو المعتقد، وبذلك تختلف باختلاف المعتقد الذي أنشأت عليه، كما يختلف تأثيرها تبعا لتلك العقيدة ويقويها الازدراء الذي يتلقوه من الآخرين، ويمكن للمقدسات أن تزول بزوال العقائد التي أنشأتها، فأما التي بنيت على أفكار وأحاسيس قوية تدعمها التجربة، لا تزول وتندثر بسرعة مثل غيرها، أما التي بنيت على كذبة أو خرافة كانت الأسبق للزوال، كما يمكن لصفة القداسة الانتقال من شيء لأخر وفق مبدئي التجاور والأثر حيث يساهمان في انتقال هذه صفة، فالأثر يذكر بالمقدس الأصلي والتجاور يقوي الأفكار الجديدة ليعطينا انطباعا يحاكي الانطباع المباشر للمقدسات، ما يشكل مقدسات جديدة.

4. خاتمة:

تبوأت المقدسات مكانة عالية في جميع المجتمعات فهي الوعاء الذي تصب فيه تلك القوة الغريبة التي يعجز عن فهمها الإنسان ويرجو مرضاتها، ونتيجة لبحثنا الذي اعتمد على تصور الفيلسوف ديفيد هيوم لمفهوم المقدس، حققت مجموعة من النتائج منها:

-أصل كل المقدسات هو المعتقد وأصل المعتقدات جميعا هي الانطباعات والأحاسيس، وتنتج عن طريق الحواس من خلال تجاربنا في الطبيعة.

-المقدسات أصلها دنيوي، وليست مقابلة له، وما هي إلا صفة أعطاها الإنسان لدنيوي عن طريق الدين أو بدونه فأصبحت مقدسة، فهي ليست خاصية في الأشياء المقدسة، وإنما هي في ذهن الإنسان فقط، فمن الممكن إذن أن تتغير أو تزول تلك القدسية من الأشياء.

المنارة للاستشارات

-المقدسات مهمة لجميع العقائد والأديان فهي تعمل عمل المحفز والمجدد لتلك الأحاسيس التي أنشأت العقيدة فالأحاسيس تهت وتضعف وتتغير، والمقدس يبقيها قوية وراسخة في ذهن الإنسان.

-المعجزة من أدوات الدين التي تعطي الهيبة والتقديس له، كما أنها تعمل عمل الدليل والشاهد على تلك القوة المقدسة التي لا يستطيع الإنسان التعاطي معها، فيرجو منها السلامة، ويبذل لذلك كل جهد.

قائمة المصادروالمراجع

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر شمس الدين الرازي. (1986). *مختار الصحاح*. بيروت: دار الكتاب العلمية.

المقدس والعنف الصهيوني في رواية الصراع العربي- الإسرائيلي. (* ماي-أوت, 2000). *مجلة إنسانيات*.

ديفيد هيوم. (2008). *تحقيق في الذهن البشري*. (تحقيق د محمد محجوب، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

ديفيد هيوم. (2008). *مبحث في لفاهمة البشرية* (المجلد 1). (موسى هية، المترجمون) بيروت: دار الفرابي.

ديفيد هيوم. (بلا تاريخ). *التاريخ الطبيعي للدين*. (حسام الدين خضور، المترجمون) دمشق: دار لفرقد.

روجييه كايوا. (2010). *الإنسان والمقدّس* (المجلد 1). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت. (1990). *معجم البلدان*. مصر: مطبعة السعادة.

طحاح مبروك. (* جوان, 2010). مشروع علم الإنسان عند ديفيد هيوم. *مجلة أنسنة*.

محمد خالد. (بلا تاريخ). المقدس والعنف في التجربة الصوفية. *إنسانيات*.

مرسيا إلياد. (1988). *المقدس والمدنس* (المجلد 1). (عبد الهادي عباس، المترجمون) دمشق: دار دمشق.

نورة بوحناش. (2015). نهاية المقدّس والدين البديل ما بعد الدين في فلسفة دافيد هيوم. *مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث*(7).

المنارة للاستشارات

David Hume .(2017) .*A Treatise concerning Human Nature* .

David Hume .(2017) .*Enquiry Concerning Human Understanding* .
Copyright Jonathan Bennett

المنارة للاستشارات